

**جمالية المقاومة - الرد بالكتابة -
قراءة في كتابات البشير الإبراهيمي**

أ. سهيلة بن عمر
جامعة سيدي بالعباس

الملخص:

إن أهم ما يميز كتابات العلامة محمد البشير الإبراهيمي عند قراءتها ضمن سياقها التاريخي والسياسي والثقافي، بروز ملمح المقاومة الرفض لهيمنة المركز الإمبراطوري الاستعماري، وثرجمان ذلك لا يكون إلا بالفعل الكتابي - الرد بالكتابة- الذي يوجه لكوي أعماق المركز شكلاً ومضموناً، ودرء شبح الموت الكياني والحضاري عن الأمة الجزائرية والحفاظ عن أصولها الدينية والتراثية العريقة، فما ممكنات ذلك؟ وأين تكمن جمالية المقاومة في كتابات الإبراهيمي؟

Abstract:

The most important characteristic of the writings of Mohammad Bashir Ibrahim when read within their historical context, political and cultural, the emergence of feature of the resistance of rejecting the hegemony of the center imperial colonial, and an interpreter that is not only already written - to respond in writing - which is directed to Kui depths of the center in form and substance, and ward off the specter of death Alekiana and civilization for the Algerian nation, and preserve their assets for religious and ancient heritage, what enablers that?

And where lies the beauty of the resistance in the writings of Ibrahim?

خلق الله تعالى هذا الكون وفق سنن ونظم كونية، تنتظم وتتوازن من خلالها الحياة فلا يصيبها خلل أو زلل، ومن هذه السنن الكونية، سنت التدافع التي أشار الله تعالى إليها في قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصُلُواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلِيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحج 40). إن سنت الدفع¹ أو التدافع لها أبعادها ومراميها وموحياتها الدالة على معنى الاختلاف والتضاد القائم بين طرفين أو منظومتين تحاولان إثبات الطرح الهوياتي والاختلافي لهما، من خلال دفع الآخر عن مركز السلطة، ليتبوأ مكانه ونفي الآخر / المختلف أو إخضاعه لسلطان قوته وحكمه، غير أن هذا الآخر لن يستسلم بسهولة، فيحاول بدوره إزاحته عن مركز السلطة التي استأثر بها واحتكرها لنفسه، وسيعمل

جاهداً على تثبيت نفسه ودفع الآخر ، ومن هنا ينشأ الصراع بين الأطراف المتناقضة والمتضادة سواء كان هذا الصراع قائماً بين فكرتين أو مذهبين أو ثقافتين أو دولتين.

وفي هذا السياق يأخذ الصراع مظاهر عديدة أهمها المواجهة العسكرية المسلحة وفرض الضغوط الاقتصادية والمالية ، وفرض العزلة والتهميش ، غير أن أساس وجوه هذه الصراعات في الحقيقة يكمن في فرض الخطاب الفكري أو الثقافي بقوة الإقناع الذي يتخذ له أشكالاً عديدة تتجلى في القوة العسكرية أو الاقتصادية ، للوصول في النهاية إلى تحقيق المستوى المهيمن في إلزام الآخر بتبني المشروع الفكري والحضاري الخاص به ، والالتزام به على نحو الوصاية التي تؤكد سياسة دمج الآخر في كينونته هذا المشروع الإخضاع ، بعد إلغاء وبتر معالمه وجذوره الحضارية والثقافية ، بهدف التغيير واستحكام الريادة في المشهد العالمي ، وستظل هذه السُنّة قائمة بين البشر بين طرف متجبر متسلط وطرف آخر مناوئ مقاوم إلى أن يرث الله الأرض وما فيها.

ولنا في تجربة الاستعمار الفرنسي للجزائر خير دليل ، حيث حاول المحتل الفرنسي كقوة سائدة الهيمنة على المشهد الفكري والثقافي لهذا الشعب المستعمر وتقويض مشاريعه النهضوية والإحيائية لبناء خطاباته المعرفية وفق امتداداتها التاريخية والحضارية والتراثية الخاصة بهذا الشعب المُغتصَب ، وإن انبرى خيرة رجال هذه الأمة الجزائرية العظيمة في الذود عن شرف وطهارة التراب الجزائري منذ أن وطئته الأقدام السوداء (الوجود الكولونيالي الفرنسي) عشية احتلال الجزائر سنة 1830م ، من خلال سلسلة من المقاومات الشعبية المسلحة التي استبسلت وناضلت لطرد المحتل مثل مقاومة الأمير عبد القادر (1830-1847) التي دامت أكثر من خمس عشرة سنة ، ومقاومة أحمد باي (1830-1848) ، ومقاومة بومعزة (1845) ، أضف إلى ذلك مقاومة الشيخ المقراني والشيخ الحداد (1871) ، وثورة بوعمامة (1881-1904) ، وغيرها من الانتفاضات الثورية والعسكرية العديدة .

وبحسب ذلك ، وبعد أن خمد صوت المقاومة المسلحة جاء دور هدير المقاومة الهادئ ، حيث حاول ثلث من النخبة الجزائرية التي تسلحت بسلاح العلم والمعرفة والثقافة الإسلامية بناء الثقة في الخطاب العربي والإسلامي وإعادة تشييد ركائزه العقائدية والفكرية ، التي تكاد تغرب عنها الشمس ما دامت ظلال الظلام الاستعماري تنسج حوله خيوط التيه والخصي. وقد قيض الله سبحانه وتعالى للجزائر في محنتها رجالاً صدقوا الله ما عاهدوه عليه تدبروا في محنتها ، فانبأوا للدفاع عن كيانها من خلال تبني ثقافة المقاومة التي أدت " إلى تجديد خطابنا الثقافي العربي ، وذلك لأنها ثقافة حقيقية جادة وليست ثقافة هامشية هلامية..... وهي معبرة عن المعقول "2.

وتعتبر جمعية العلماء المسلمين، نموذجاً مميزاً في تبنيها مسار المقاومة الدينية والفكرية والثقافية، ومن العلامات الفارقة في تاريخ الجزائر المعاصر لما قدمته للجزائر والجزائري من أعمال أصيلة ومنجزات جليلة لقوله تعالى: ﴿و البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾ (الأعراف: 58). فكانت جمعية العلماء المسلمين بحق " ثورة فكرية سلفية استهدفت تهيئة الرأي العام وتغيير تفكيره وعقليته والكثير من عاداته ومحاربت الخرافات والأساطير والحشويات وسائر أنواع التخدير الفكري ، والعودة به إلى روح العمل والجهاد الإسلامي وإلى النظرة الإسلامية الصحيحة".³، من خلال جهود عبد الحميد ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي وغيرهم من رجال هذه الأمة الشرفاء.

ويُعد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من الكُتاب الذين انحازت كتاباتهم في إضاءة عمق الشعب التاريخي والحضاري ، والكشف عن أحلامه المندثرة، وخصاله المنسية وعما لا يعرفه عن نفسه، من خلال استثمار ثنائية الشكل والمضمون لإحياء الهامش المغيّب من تراثنا وثقافتنا ، ذلك أن الأدب بالنسبة لشيخنا هو مخلوق مقاوم⁴ بامتياز يقاوم ثقافة المركز والطمس والهيمنة، من أجل فرض دعائم معرفية ومرجعيات تميز الخطاب الثقافي الجزائري بشكل خاص ،و العربي بشكل عام.

فقد كانت كتابات العلامة الإبراهيمي عنصراً ثقافياً أساساً ومحركاً جماهيرياً فعالاً نحو الحقيقة والحق، فخير تجربة المقاومة بشكل جمالي ،و عايشها بلحم الشعراء والأدباء ،و بنفس أبيّة وملكت إبداعية ، للدفاع عن الذات ، فانتفض وجدانه ليعلن عن رفضه أشكال التغريب والهيمنة، من خلال استثمار قوة النص القرآني النصية والدلالية ،و استلهاهم أسلوبه بشكل مقصود على مستوى العلامات والرموز ورؤية الكون المضمرة في لا وعيه النصي؟. فالإبراهيمي على اختلاف أصناف وأجناس القول التي كتب فيها كان نزاعاً إلى تلوينها بلون الموروث الإسلامي الواسع، كما نستلهم ضمن نصوصه الأسلوب العربي البياني القديم ضمن محاكاة ساخرة تروم تقويض المركز الإمبراطوري وهدم سلطته الفنية التي تسعى لتسويق الاضطهاد والهيمنة ، وتبريرها بما يخدم مصلحة المركز على حساب الفئات المهمشة من خلال ممارسة فعل الكتابة المطهمة بترياق اللغة المقاومة .

* جمالية المقاومة / الرد بالكتابة في كتابات الإبراهيمي؛

1- الإبراهيمي فكر وأدب مقاوم :

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - هذا الرجل الذي كان أمة ، كان جيلاً ، كان عصرًا⁵ عملاقاً من عمالقة التفكير والعلم والأدب والجهاد الحق في سبيل الإسلام والعروبة والوطن الحر، كرس حياته لخدمة العلم والدين فكان ناعم الرجل

مصلحاً ومُدرباً وخطيباً وإماماً، سعى بفكره تأصيل مقومين رئيسيين في الذات الجزائرية: الإسلام والعروبة. وجعلهما أهم الأهداف التي تركز عليهما نهضة الأمة الجزائرية، والتمتع في سيرة الشيخ الإبراهيمي ونشاطه الفكري والأدبي توضح لنا جهده المنفرد الذي وإن كان تحت لواء الجمعية التي شعارها العمل الجماعي المشترك، فإن ذلك لم يحجب عن الدارسين عزم شيخنا الدؤوب المكالمة بمنهج التجديدي الجامع بين الإصلاح الديني والمدني، والذي يروم من خلاله تطوير الخطاب الإسلامي على سبيل القيد والقدرة، من خلال "إنتاج الخطابات الضامنة لهوية الجماعة والقيم المركزية السائدة فيها وبثها في الزمان والمكان"⁶. فكانت خطابات الإبراهيمي تقاوم على مستويين :

- مقاومة خطاب الرق والاستعباد.

- مقاومة استرقاق الخطاب، والذي يتجلى في توجيه خطابات الهيمنة القائمة على ترسيخ النظم والقيم الأوروبية بوصفها أعلى وأرقى من النظم والقيم الوطنية لدى السكان الأصليين بأساليب ضمنية وحاذقة، تركز في أغلبها على اختراق التراث وإعادة إعمارهم وفق هندسة كولونيالية⁷ هدامة.

فهدف الشيخ العلامة الإبراهيمي إلى تحرير الخطاب، والإنسان وإعادتهما أو تكريسهما حتى يُطالا بوجههما للتاريخ الذي طالما قذفت به الهندسة الكولونيالية إلى خارجه. وبقاءه خاضعاً لبنية الهيمنة الرمزية التي أسس لها تاريخ طويل من الممارسات التصنيفية الغربية للعالم إلى مركز وأطراف، وإلى متحضر ومتوحش، وإلى متقدم ومتخلف هذا الخطاب الغربي الإيديولوجي اختزل العالم في الأنا الغربية النرجسية.

1-1 - الرؤية الفكرية المقاومة عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

إن المتصفح للأعمال الكاملة للعلامة الإبراهيمي يدرك أن وراء هذه الكتابات فكر حر يتميز بفلسفة خاصة مبثوثة في فضاء الفكر الإبراهيمي، إنها فلسفة الجهاد والدعوية، والثورة على جميع أشكال الظلم والاضطهاد، حيث يتمحور فكره على قطبين أساسيين هما: الإسلام والعروبة اللذان اعتبرهما السلاح المؤثر في مواجهة المركز الإمبراطوري، الذي شرع في تحطيم الخصوصيات الثقافية والعقائدية وبسط ثقافته الغالب على المغلوب بقوة السلاح والسلطة والفكر، فتجند الشيخ بكل إمكانياته الفكرية لمواجهة هذا المخطط من موقعه كمصلح ومفكر ديني ومثقف يعيش "من أجل الأفكار عبر ما يشبه الدعوة والالتزام"⁸، فكانت شعاراته الفكرية تعلو الآفاق أن لا عروبة بدون إسلام ولا إسلام بدون عروبة. فقلماً نجد مقالاً من مقالاته لا يؤكد على هذه الجزئية أو يشير إليها من قريب أو بعيد، سواء كان في كتاباته ذات

البعد المحلي الوطني أو تلك الكتابات التي تتناول البعد العربي العالمي ، مما دفع بعض المستشرقين المدافعين عن الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر إلى رمي الشيخ الإبراهيمي بالعديد من التهم والافتراءات أهمها النزعة الشعبوية والتعصب العرقي والتطرف الديني في محاولة لتشويه المقاصد السامية التي حرر لها قلمه ، وكرس لها فكره ، وهي تهمة دفعها الكاتب عن نفسه في قوله : " هذا القلم ليس شعوبي السن ، ولا غمس شقاه في منكر ، ولا تحلبت ريقته منكر التفريق ، ولكأنما صيغ هو ولسان صاحبه من جوهر واحد ، فهما يتحاربان إلى غاية في حرب شعوبية المذاهب والطرق في الإسلام ، وشعوبية الدماء والألسن في الأجناس ، وشعوبية الشرق والغرب في أرض الله".⁹.

وبحكم ذلك سعى الشيخ الإبراهيمي إلى بناء نظام مؤسساتي فكري نابع من الأصول الإسلامية وتعزيز تصوراتها الشمولية للوجود ، كوسيلة مقاومة وفعل يتضاد مع فعل التشويه والتغريب ، والوقوف في وجهه بما يحققه من القدرة على مواجهة الآخر والانتصار عليه في معركة تدور رحاها بين المركز الذي لا يعمل فقط لزيادة قوته الفكرية والعلمية وفرضها على المغلوب ، لكن يعمل على إضعاف ما سواه ، ليبقى سائداً ويندثر كل ما عداه . ذلك أن مشكلة المركز الإمبراطوري ليست في التحرر الوطني أو الاستقلال الذاتي عن سلطتها ، بل تنحصر مشكلتها في الهيمنة التي يجب أن تستمر ضد كل محاولات الانعتاق مهما اختلفت أشكالها وأدواتها ووسائلها . وفق ذلك ، عمد الشيخ الإبراهيمي مقاومة هذا المشروع الاضطهادي ، من خلال تطوير الخطاب الفكري والثقافي والتعليمي بجملة من الثوابت والدعائم التي كان لها عميق الأثر في بناء وعي إسلامي جديد يقيظ وفطن ، وترتكز هذه المقومات في ثلاث تيارات مقاومة:

* التمسك بكتاب الله وهدى نبيه (مقاومة ذات مستوى عقائدي) :

يعتبر القرآن الكريم وهدى نبينا الأمين المرجعية الأولى ، بل تكاد تكون المرجعية الوحيدة لفكر الشيخ الإبراهيمي ، وربما يعود ذلك إلى طبيعة ثقافته الإسلامية التي شب وشاب عليها ، حفظ القرآن وقرأ الحديث ، ودرس علوم التوحيد والفقه والأصول ، يملك ناصية اللغة والتفسير والمعرفة بالتاريخ الإسلامي ، فكانت أول دعواته التمسك بالقرآن الكريم والسير على هدى الرسول الكريم ، لأنه أيقن تمام اليقين منزلتهما وعظمتهم في هدى هذه الأمة إلى الفلاح في دنياها وأخرها ، والتأسي بهما فيكونا سبيل هذه الأمة في الحفاظ على كيانها الديني وخصوصيتها التراثية والفكرية ، ودعوة الشيخ للاعتصام بهذا الحبل المتين ، هو في جوهره فعل مقاومة لرؤية الآخر (المركز الإمبراطوري) الذي يحاول دوماً التأكيد على تفوق رؤيته

النصية والفكرية ومحاكمة نصوص أو قيم الآخر/ المختلف على أساس عنصري ووسمها بالدونية مهما كانت سمتة هذا الخطاب ديني أو تراشي أو ثقافي ، وإذا كانت المركزية الإمبراطورية " قد سعت إلى إحلال ثقافتها بلا حدود ، فإن الرد المنطقي هو أن يرتمي مثقفو البلاد على ثقافتهم بلا حدود أيضاً " 10 . وبذلك تكون هذه الدعوات بمثابة المقاومة التي تدرج على المستوى العقائدي الذي هو روح هذه الأمة ونورها .

فاتخذ القرآن أساساً للإصلاح ، وأداة توجيه ، وتربية ، وتثقيف للناشئة الجزائرية الصاعدة ، فخطبها بقوله : " أحيوا قرآنكم تحيوا به ، حققوه يتحقق وجودكم به ، أفيضوا من أسراركم على سرائركم ، ومن آدابه على نفوسكم ومن حكمه على عقولكم ، تكونوا به أطباء ، يكن بكم دواء " 11 ، فتعز الأمة وتكون لغيرها إماماً ، ولأن القرآن والسنة المحمدية هما وجهان لعملة واحدة ألا وهي الرسالة الإسلامية التي تقاوم بها الأمة الحذلقة الفكرية التي يفرزها الخطاب الاستعماري ، فإن الشيخ الإبراهيمي لم يفترق في الدعوة للتمسك بهدي المصطفى لأنها المحجة البيضاء التي تركها للخلف فإن اعتصمت بها لن تزيع ولا تضل ، وسيكون الالتزام بمبادئها وقيمتها سلاحاً لمقاومة التغريب (البشاعة) من خلال تكريس مفهوم الأصالة (الجمال) ، يؤكد الشيخ ذلك في قوله " أيها الإخوان: إن نبينا منا لقريب لو جعلنا الصلة بيننا وبينه حبل الله القرآن ، فقد تركه فيقول فينا ليكون النور الممتد بيننا وبينه ، وقد كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، ويقف عند حدوده ويصنع أفعاله وتركوه من أوامره ونواهيه ، وينحت من معدنه تلك الآداب التي ربي بها نفسه وراض عليها أصحابه ، ثم تركها كلمة باقية فينا وحجة بالغة لنا أو علينا ، وقد شرفنا تشريفاً يبقى على الدهر ، وشهد لنا شهادة نفيه بها على الغابرين إذ قال لأصحابه : " أنتم أصحابي ، وأخواني الذين يأتون من بعدي " 12 .

فإذا حققت الأمة التمسك والتأسي بسيرته وسنته ، فهي قد خطت الخطوة الثانية بعد التمسك بالقرآن نحو تحقيق الشهود الحضاري لها بين سائر الأمم ، وانتصرت في كفاحها ومقاومتها لثقافة المركز الإمبراطوري الغازية على المستوى العقائدي ورفضها الاستسلام له . وعلى مستوى شيخنا فإنه قد جسّد هذا النهج على مستوى أفكاره الإصلاحية البنائية من خلال مجهوداته الجلية في تجديد دين ودنيا المسلمين ، فيكون تقدمهم وتطورهم كما أوصى الشيخ العلامة البشير الإبراهيمي " صادراً عن المنابع الجوهرية والنقية لأصول الإسلام ... وليكون حديثنا دائماً وأبداً بلسان القرآن ولسان الزمان ! " 13 .

* الحفاظ على اللسان العربي المبين (مقاومة ذات مستوى وجودي) :

عُرف - إمام العربية- الشيخ البشير الإبراهيمي رحمة الله عليه، ولعه الشديد وتقديسه الكبير للغة العربية، لغة القرآن والمسلمين ولغة العلم والحضارة، تنطوي على عناصر الكمال في معانيها وأسباب القوة في مبانيها، وتعد اللغة العربية أساس هوية هذه الأمة ورمز وجودها الحضاري، وإن موت اللغة ما هو في حقيقته إلا موت هذه الأمة كيانياً، فتغلب على أمرها وتتخلف، ولا تجد من مناصب لها سوى إتباع المركز والإذعان له وتقليده وبالتالي لا يمكن لها التخلص من هذا القيد، ويصبح من الصعب الإطاحة بأسطورة المركزية التي تتجسد في مفهوم اللغة القياسية¹⁴ السلطوية المهيمنة.

بمقتضى ذلك انبرى الشيخ مقاوما سطوة هذه اللغة المهيمنة، مكافحاً أفكارها المتأصلة في نموذج المركز والهامش، فعمل على هدمها من خلال الكتابة في أغلب أجناس القول، وأهمها الكتابة الصحفية التي تميزت بلغتها النضالية المتبصرة على مدار الأعداد المنشورة في جريدتي (الشهاب) (عيون البصائر) لا زالتا إلى يومنا هذا تجسداً لنموذج الأدب الحي، وإشراق البيان الأصيل، فيقول الإبراهيمي في معرض حديثه عن جريدة البصائر أن "للبصائر طرفان: أعلى، وهو معرض العربية الراقية في الألفاظ والمعاني والأساليب. وهو السوق الذي تجلب إليه كرائم اللغة من مأنوس يصيره الاستعمال مأنوساً، وهو مجلى الفصاحة والبلاغة في نمطها العالي. وهو أيضاً النموذج الذي لو احتذاه الناشئون من أبنائنا الكتاب لفلحت أساليبهم، واستحكمت ملكاتهم، مع اتقان القواعد ووفرة المحفوظ. ولهذا الطرف رجاله المعدودون. وهو نمط إعجاب أدباء المشرق بهذه الجريدة."¹⁵ وكان هذه مقالات هذه الجريدة "أعادت إلينا مادة أبي حيان التوحيدي في قالب جديد، وشيئاً من نثر الجاحظ في لون مشرق أخاذ."¹⁶

وقد دافع الإبراهيمي من موقع المقاوم على ترسيخ عروبة الجزائر ماضياً وحاضراً، في الكثير من المحافل أينما حل، وحيثما ارتحل لما حاول، مقارعاً الخطاب الفرنسي الذي سيس لفكرة إحلال البربرية مكان اللغة العربية وذلك تفريقاً للأمة الجزائرية وسعيًا منه لدس الشقاق بين أبناء الوطن الواحد، فيقول: "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حماتها، وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل..."¹⁷.

* العمل على نشر العلم والعمل به (مقاومة ذات مستوى عملي):

يخاطب الشيخ الإبراهيمي في أحد مقالاته الاستنهازية الأمة الجزائرية في قوله: "لا يبني مستقبل الأمة إلا الأمة."¹⁸، التي ليس لها إلا أن ترسخ أقدامها بالعلم في ركاب الحضارة السريع، فالعلم لازم من لوازم الرقي والتمدن، وأداة راسخة في نجاح

مشروع النهضة والتغيير ، ويؤكد ذلك بقوله : " إنك لا تنهضين إلا بالعلم وإن نهضة لا يكون أساسها العلم هي بناء بلا أساس . " 19 فالدعوة إلى الرسوخ في العلم هو السبيل الوحيد لتخليص الجزائر من ربقة التخلف والجهل ، والخضوع للتبعية والهوان ، في رأي الشيخ الإبراهيمي .

والذي لا مندوحة عنه أن الأمة الجزائرية نالها عهد طويل من الجهالة والأمية، فتهالكت وضمحل كيائها ، فنشط فيها الفكر الطرقي الذي وجد له مناخاً ملائماً في شعب تمزقه الجهالة والسذاجة ، فتحامل الخطاب الكولونيالي على هذا الشعب المنكوب وزرع فيه الاستسلام لهذا الاستعمار لأنه حسب ما عبر عنه رجالات الفكر الطرقي أمثال الشيخ عبد الحي الكتاني في أن الاستعمار قدر لا يمكن رده ، وما الهدف من ذلك سوى تمكين الوجود الاستعماري في الجزائر وتعزيز هيمنته .

وفق تميز الشيخ الإبراهيمي بفكره الإصلاحى وفلسفته الخاصة في الإصلاح ، وأسلوبه الفارق في ترسيخ المقومات وتثبيت الذات ، على أساس مقوماتي يتجه إلى مخاطبة الذات الجزائرية وربطها بعمقها الحضاري والتاريخي والتراثي ، ووضعها في سياق ممارساتي تدرك من خلاله خصوصيتها الدينية والثقافية ، وتجعلها من أهم الركائز الجماعية ، للتصدي الخطاب المركزي الضارب للقيم الناظمة في مجتمع هذه الذات ، التي رُميت موهبتها بالتعطيل ، وعقلها بالجمود ، وفكرها بالعور المعرفي.

وعلى هذا الأساس أشار الإبراهيمي إلى ثلاث تيارات توفيقية ، تمنح الذات الجزائرية إلهام البعث والتجديد ، وتكسبه الانتصار في معركة الوعي ، فينطلق في المقاومة من القاعدة وصولاً إلى القمة - الخلاص.



ويمكننا أن نلمس آثار هذه الهرمية الإبراهيمية في استنهاض همم الشعب الجزائري والتحول به من مرحلة الخنوع والاستسلام للمهيمنات المركزية الإمبراطورية، إلى مرحلة التمرد والالتزام بخط القيم الذي تتوازن فيه الروح والمادة والأخذ بروافده الحضارية الأصيلة ، فعاد إلى منابعه الأصلية ولم يحد عنها ، فأثمرت هذه الولادة

الجديدة لفكر هذه الأمة ، الثورة على جميع أشكال المركزية والعودة إلى الداخل .. إلى الرحم المعرفي الثابت والمحافظة على كينونته وخصوبته . ليولد خطاب جزائري بكل ألوان الطيف هدفه أن يعبأ الفرد الجزائري بالوعي والانتفاض ضد السائد الفاسد ، وضد عطب كينونته وضد كل ما يحقق كيانه بالعمل والإبداع والخلق في كنف الحرية .

2 - الأدب المقاوماتي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

عندما يصبح الإبداع الآلة العنصرية والسلمية للمقاومة فإنه يصبح للهامش سلطان يسطو به على المركز وتصبح الكتابة الصادقة جهداً وجهاداً (مقاومة) لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ سورة إبراهيم (24/14-25) ، ومحرك جماهيري فعال إلى الحقيقة والحق ، من خلال الجهاد بالكلمة وتقديم قيم مضافة إلى المجتمع ، من خلال " الطليعة الجسورة التي لا تكف عن السعي للانتقال بمجتمعاتها من الإظلام إلى الاستنارة ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن التخلف إلى التقدم ، كما تعمل على أن تنقل ممارسات كل الذين حولها من الظلم إلى العدل ، ومن الباطل إلى الحق ، ومن الشر إلى الخير ، ومن القبح إلى الجمال ، ولذلك فهي الطليعة التي يتحول أفرادها إلى أمثلة تحتذي ."²⁰ تسعى ثقافياً نحو كسر سطوة امتلاك البؤرة المعرفية من طرف واحد ، وصياغة العالم على أنه الممارس الأول للكفاءة. واستبشاع الثقافة الأصلية والتعالى عليها إما تحقيراً أو نبذاً أو إقصاء. وفق ذلك ، تكشف لنا كتابات الشيخ الإبراهيمي سعيه الحثيث نحو " تنقية النص من تراكمات الأنشطة التي قامت بها المؤسسة الاستعمارية ، وعلى مختلف القطاعات والحقول المعرفية منها والثقافية. إنها الفعالية التي يتم فيها تحديد غاية الدرس وموضوعه والذي يتمثل في القوة الغربية ، تلك التي قيض لها أن تفرض قيمها ومثلها ورؤاها وتصوراتها وتحدياتها ورهاناتها على مجمل التفاصيل التي تزخر بها الحياة ."²¹

إن ما تميزت به كتابات الإبراهيمي هو حفاظها على حس المقاومة بمفهومها الجمالي النابض في كل مفردة أو فكرة اقتناها للتعبير عن مشروعه الطلائعي النهضوي ، حيث ما خلت آثارة النثرية الفنية من استخدام للأثر القرآني تركيباً وتصويراً ، وموسيقى ، أيضاً الكتابة على منوال القدماء واختيار الأغراض الأدبية التقليدية ومحركاتها كالخطابة ، والمقامة والمقال بأسلوب يوصف بالجودة ورفعة المستوى ، فكانت كتاباته " تركز على محفظة من التراث ."²² وقد كان التزامه به من باب

الضمان الأول لمعركته ضد عملية التهميش والتغريب ، فحملت كتاباته سلطنة ضديّة عنوانها التقويض كرهان فـلـني غايته بناء الثقـة في الخطاب الأدبي العربي والإسلامي ، والإطاحة الأبديّة بأسطورة المركزية من خلال الرد بالفعل الكتابي والثقافي.

وما دام لكل نص عبقرية خاصة، فإن لكل عبقرية نصها الخاص، حيث تميزت كتابات الإبراهيمي بالهرمية الإبراهيمية التي أشرنا إليها سابقاً، والتي جعلها نهجاً لكتاباته كما هي نهجُ لفكره المقاوماتي ، وبالتالي اضطلعت كتابات (شكلا ومضمونا) الإبراهيمي بمهمة تشييد بناءات فنية مزحزحة لموقع المركز الإمبراطوري الساعي إلى ممارسة إرهاب الفكر والمعنى الموجه لإجهاض وإبادة المشاريع الحداثوية المستمدة من الدرس التراثي، فيخلو رحم الأمة من هذه الأجنة ، وتتحول إلى أمة عقيمة سبيلها إلى الاندثار والزوال مهما طال الزمن أو قصر.

وفق ذلك. عمد الشيخ إلى إضاءة عمق هذه الأمة، والكشف عن ملامحها المخبوءة، ومخاطبتها بما لا تعرفه عن نفسها، وتعميق انتماءاتها الذاتية والموضوعاتية لتتجاوز حدود مثلث القهر (الآخر، المستقبل، المجهول) فتميزت كتاباته بفقهه الخاص الملتزم -المقاوم- الشاهد وذلك من خلال تخصيص الكتابة بأشكال تعبيرية مستمدة من مخزون الثقافة الإسلامية ، وظفها السلف الصالح في توريث ثقافتنا لنا نحن الخلف ، مثل أدب المقال في كتاباته الصحفية ضمن جريدة (عيون البصائر) ، أو في خطبه ، حيث نلمس أثر القرآن الكريم في نشره الفني تركيباً ،و تصويراً ، وتنغيماً ،فيحاول محاكاته على نحو ما باعتباره مركز المركز ولا بديل عنه في زمن البدائل الهشة ،و بالتالي يؤكد من خلال كتاباته المستلهمة من القرآن أسلوباً ومضموناً قلب طرفي المعادلة فما هو هامش منبوذ في عقيدة الخطاب الاستعماري هو في الأصل بؤرة المركز ، ويقول معقّباً عن ذلك " أحيوا قرآنكم تحيوا به ، حققوه يتحقق وجودكم به ،أفيضوا من أسراركم على سرائركم ، ومن آدابكم على نفوسكم ومن حكمكم على عقولكم ، تكونوا به أطباء ، ويكن بكم دواء".²³ .

يتبين لنا من خلال ما سبق، إدراك الشيخ أزمة التمثيل النصي ، فلا يروم عن التمثيل بقوة الأسلوب القرآني بديلاً ، نستحضر في خضم ذلك فرضية (نورثروب فراي) في كتابه (تشریح النقد) التي ترى بأن الإنجيل يشكل القانون الأكبر للأدب الغربي. وبالتالي يكون بدوره القرآن في كتابات الشيخ الإبراهيمي قانوناً أكبر للأدب العربي الإسلامي على مستوى التأثير المقصود وعلى مستوى العلامات والرموز والأساليب ورؤية الكون المضمرة في لا وعيه النصي .

والأثر القرآني في كتاباته النثرية يلامس تخوم الصور التعبيرية أيضاً المنسوجة على قصيد الأسلوب القرآني والأمثال الشعبية والتاريخ الإسلامي والمعبر عنها برؤية معاصرة وثقافة أصيلة، ومنتخب منها هذا المثل من مقالة (فصل الحكومة عن الدين) " كانوا مع الاستعمار إلماً على مطالبنا ، وكأنهم ضمنوا لأنفسهم الخلود في هذه الوظائف المهنية ، فطمأنوا لهذه (الخبزة) الذليلة ، وذاقوا وبال أمرهم حين يمموا الخسف بالأسس ، وحملوا على خطة الهوان فلم يجدوا ولياً ولا نصيراً "24 . نميز في هذا المقطع اقتباس الإبراهيمي جملتين من سور القرآن الكريم وهما " فذاقوا وبالاً أمرهم " ، وذلك من قوله تعالى: ﴿ ألم يأتكم نأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴾ (سورة التغابن الآية 05). أيضاً في استخدام جملة " فلم يجدوا ولياً ولا نصيراً" وهي مقتبسة في قوله تعالى: ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ (سورة الفتح الآية 22).

أضف إلى ذلك ، توظيف رموز النماذج العليا الحاملة لسلطة رمزية قوية في المخيلة الجماعية من شخصيات تاريخية وقرآنية وإنسانية لها ارتباط وشيخ بماضي هذه الأمة العريق الحارسة لأصوله ومناقبه الحضارية ، فيضرب الأمثال بتجاربها وما تركته من آثار طيبة دالت على حسن مزيتهما وفضلها على هذه الأمة المخضرمة ، ويعارض رموز المركز الإمبراطوري بها ، التي لن تبلغ شأواً كبيراً في معارضة رموز الهامش – حسبها - برموزها ، ويقول في هذا الصدد " فكيف لا ينتخي بخيله التي وردت في المشارف من هو في السر من فهر ومن الذوائب من قریش ، وما وردت إلا لإنقاذ تراث الخليل من يد الدخيل "25. وقد أتى الإبراهيمي على ذكر شخصية النبي إبراهيم الخليل ودوره الجليل في فلسطين، كما جاء على ذكر قوم قریش وهم القوم الذين أنزلت فيهم الرسالتة المحمدية المجيدة.، ذاكراً إياهم بنض يملأها الاعتزاز والزهو بمفاخر وأمجاد هذه الأمة واغتباطه الشديد بانتماؤه إليها ، وحريص كل الحرص على الاستقاء من هذه المنابع الأصيلة والنسج على ضوءها .

نُلفي من خلال ما سبق ، توظيف الإبراهيمي للأنساق المرجعية بطريقتة مقاوماتية ومبتكرة من خلال كتاباته العابرة للقار، والتي تخللت النص بكثرة ، حتى كادت تغطي المتن ذاته ،تشمل استخدام الأثر القرآني من خلال استثمار تراكيبه ومعانيه وصوره ، بالإضافة إلى قصصه القرآني والتطرق إلى الشخصيات والرموز القرآنية المتضمنة فيه ، وتوظيف الحكم والأمثال الشعبية ، والاهتمام بالتراث الشعبي والشعر الملحون في الجوائر ، والإلمام بحفظ الكثير من الأبيات والدراية بخصائصه وتاريخ نشأته وأعلامه ، وإن يكن هذا الاهتمام لم يبرز في كتاباته غير أنه أولاه اهتمامه

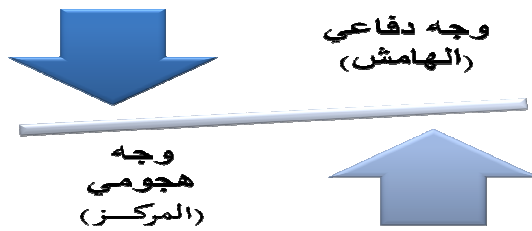
الفكري والتدويني النقدي ، من خلال الرسالة²⁶ التي كتبها وحققها عثمان سعدي عند لقائه بالشيخ في القاهرة ، حيث جمعت هذه الرسالة بين دفتيها نفحات من الشعر العامي لكل إقليم جزائري ، وكأنه حارس أمين لهذه الثقافة الشعبية التي تعكس الوجه الآخر لمقاومة هذه الأمة الكيان المركزي منذ فجر الثورات الشعبية الأولى حين وطأت فرنسا أقدامها البربرية أرض الجزائر ومنعت أبناءها حق التعلم والكتابة ، فكان هذا الشعر الذاكرة الشفوية الخالدة لأصول هذه الأمة المجيدة .

أضف إلى ذلك توظيف الأجناس الأدبية الكلاسيكية التي لها صلة بالماضي الإبداعي العربي غير أنه يقدمها بأسلوب وتقنيات في منطقتها الغربي ضمن محاكاة ساخرة تروم تقويض سلطة المركز الكولونيالي ، ومقاومة السرد الأخضاعي المفروض على الفئات الأقلوية المغيبة ، مثل تأليف الشيخ الإبراهيمي رواية الثلاث²⁷ ، وهي عبارة عن نص أدبي ضمنه تقاليد الشعب الجزائري وعاداته ، جمع فيه بين الأصالة والحداثة ، ألفه بلحم الأدباء والشعراء ، حيث نسج هذا النص في قالب شعري على منوال الرجزيات الشعرية التي اشتهر بها الأدب العربي القديم ، تميزت بخصائص سرديّة حداثوية نلّفي تمثيلاتهما في تجارب نصيّة حديثة ومعاصرة ، أضف إلى ما يميزها الوعي اللغوي²⁸ في بناء معمارية هذه المسرحية الشعرية .

وضمن هذا السياق أبرز الإبراهيمي الرجزية كنموذج تشويري ينتصر لجماليّة المقاومة ، من خلال استخدام :

كتابة هدامة (للمركز) بأليات (المركز) كتابة بناءة (للهامش) بمصادر (الهامش)	}	جماليّة المقاومة
--	---	------------------

وبالتالي كان للمقاومة عند الشيخ الإبراهيمي وجهان:



ويركز الشيخ في أغلب كتاباته على عودة الذات المستدمرة إلى منابعها الإبداعية الأصلية ، واستقطاب الدوال الذاتية المحلية ، والاحتفاء بها كروافد راسخة للوصول إلى الأهمية، والإيمان بالهاجس اللغوي والفكري ، ومحاولة بناء مدونة أدبية متكاملة تقوم على سؤال النهضة وسؤال الفاعلية؛

[عيون البصائر، الاطراد والشذوذ في اللغة ، أسرار الضمائر العربية ، التسمية بالمصدر، رسالت الضب، فصيح العربية من العامية الجزائرية ، رواية كاهنة أوراس، أرجوزة "الثلاثة" في 36 ألف أبيات من الشعر.] .

وكما نلاحظ تتسم كتابات الإبراهيمي بالتنوع في أجناسها فهي تتلون تارة بصيغة المقال الصحفي، وتارة أخرى بصيغة الرسائل الإخوانية، وأخرى بالكتابة الشعرية المسرحية السردية..... الخ، وهذا لا يعكس لنا سوى حقيقة واحدة أن الشيخ الإبراهيمي يعي بفكره المقاوم مدى أهمية الثقافة المكتوبة ومحاولة التأسيس لها، لتواجه المد الطاغية للثقافة الشفوية التي لا دوام لها ما لم تُدوّن ، والتي كانت تعرف تداولاً كبيراً بين أوساط الشعب وفئاته الاجتماعية المختلفة، خاصة من خلال الشعر الشعبي الملحون الذي يروي رحلة الكفاح الجزائري في مقاومة المحتل الفرنسي .

وبالتالي حاول الشيخ الرد بالكتابة وما يتضمنه هذا الفعل من وعي لغوي وفكري جسد فيه إيمانه بأن الغرب استنقذ رسالته الحضارية ، وأن جدلية التاريخ قد انعكست ضده ، وأصبح هذا الغرب في ذاته بحاجة إلى ولادة جديدة تُعيد مجده البائد . ختاماً لهذا الدراسة التي حاولنا من خلالها أن نوضح مفهوم المقاومة (الرد بالكتابة) في كتابات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وتحديد الدلالة الجمالية لمفهوم المقاومة في كتاباته التي نلمس ما لها من علاقة مباشرة بالنص الإبراهيمي متضمنة مواقف الفكرية والأدبية، تجدر الإشارة إلى أن مفهوم المقاومة (الرد بالكتابة) استخدم في مختلف الكتابات المعاصرة لكتابات الشيخ الإبراهيمي، مثل ما تجسده نصوص العلامة عبد الحميد ابن باديس ، والشيخ إبراهيم أبي اليقظان ، والشيخ العربي التبسي ، والأستاذ مبارك الميللي، غير أن هناك ما يميز مفهوم المقاومة عند الشيخ الإبراهيمي ،هو تجسيدها لفكرة الوعي بكل مستوياته :

* الوعي الفكري الشمولي الإصلاحي النهضوي

* الوعي اللغوي القائم على الاختيار الأسلوبية

* الوعي المفاهيمي الأيد لوجي

* الوعي الثقافي والإنساني.

وهذا بدوره هو جوهر جمالية المقاومة المجسدة كمشروع كتابي ثقافي يجمع بين (الوعي - السيرورة - الارتقاء) عند الشيخ الإبراهيمي، مشروع بعيد عن اللغة التصعيدية المؤقتة ، بل هو مشروع سيروري يتميز بالكثافة التزمينية المستمرة ، لأنه مشروع حضاري لا يخضع للراهن بل يمتد شهوده إلى المستقبل الذي رسم لنا الإبراهيمي طريق السير إليه بثبات في ظل المد العولمي الخطير ، والتصدي له بسلطة التأصيل ، وهو التوجه الذي امتد إليه نظر الشيخ الإبراهيمي الثاقب ، وما يستوجهه علينا هو الاهتمام بنجومه المعرفية والفكرية والمقاوماتية ، كي لا يجرفنا سيل الآخر إلى عرينه ، فتلتهمنا خطابه ، ونمسي ضحية شره الإبادي ، ولا يبقى من (خير أمة أخرجت للناس) سوى الهامش تتعثر وتتخبط فيه إلى أن تندثر .

وبالتالي يجسد العلامة محمد البشير الإبراهيمي ضمير عصره ووعي مرحلته ، وعلى أساس ذلك لا يجب أن نسجن كتاباته وأفكاره ضمن اللحظة التاريخية الثابتة ، بل علينا كدارسين قراءة الخطاب الإبراهيمي كخطاب أزمة يحمل مشروع نقدي نفاذ - نقد الخطاب الكولونيالي - ، وذلك من خلال التحامم مع النص الإبراهيمي والنفوذ إلى خطابه المقاوماتي بشبكته المفهومية [الواقعية ، الثورية ، الشمولية ، الإنفتاحية ، المبدئية ، سياسة النفس ، اللامذهبية] ، الذي يسعى إلى إعادة تشكيل الإنسان ، وتربيته تربية متكاملة ، لأنه هو مفتاح التغيير باعتباره وسيلة وغاية في المشروع الحضاري وعنصر ثابت فيها .

الهوامش:

- 1- "دفع: الدفع الإزالة بقوة دفعه يدفعه ودفاعاً وتدافع وتدافعوا الشيء دفعه كل واحد منهم عن صاحبه " ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، المجلد الأول، ألف-راء، ص 992
- 2- ثقافة المقاومة في الآداب والفنون ، تحرير ومراجعة : صالح أبو أصبع ، عز الدين المناصرة ، محمد عبيد الله ، مطبعة الخط العربي ، الأردن ، دط ، 2006 ، ص 118.
- 3- الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى، سلسلة أعلام الجزائر، مكتبة ومطبعة البعث، الجزائر، 1967، ص 148.
- 4- ثقافة المقاومة في الآداب والفنون ، ص 41.
- 5- الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 2007، ص 37.
- 6- جبرار ليكلرك ، سبيسولوجيا المثقفين ، ترجمة: جورج كتوره ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، الجماهيرية العظمى ، ط 1 ، 2008 ، ص 17.
- 7- مصطلح هندسة كولونيالية colonial architecture أطلقه جيوفاني إريجي
- 8- جبرار ليكلرك ، سبيسولوجيا المثقفين ، ص 19.
- 9- عيون البصائر ، ج 2، ص 397.
- 10- فرانس فانون ، المعذبون في الأرض، ص 160.

- 11- آثار الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله : د / أحمد طالب الإبراهيمي ، الجزء الأول (1929-1940) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1997 ، ص 221.
- 12- آثار الإبراهيمي، الجزء 2، ص341.
- 13- آثار الإبراهيمي، الجزء 2، ص341.
- 14- بيل أشكروفت ، غاريث غريفيت ، هيلين تيفن ، الرد بالكتابة النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات ، ص 152.
- 15- الإبراهيمي ، البصائر ، ع 86، في 11-07-1949، ص 5، العمودان الثالث والرابع، من نحو الأعلى.
- 16- الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، الجزائر قصر الثقافة في 13 و14 ربيع الثاني 1426هـ الموافق لـ 22-23 مايو 2005، ص 212.
- 17- عيون البصائر ، ص 313.
- 18- عيون البصائر، 22 ربيع الأول 1355/12 يولييه، 1936/29 ربيع الأول.
- 19- عيون البصائر، ص 271.
- 20- جابر عصفور، الاحتفاء بالقيمة، دار المدى للثقافة والنشر، بيروت، ط1، 2004، ص 11.
- 21- هريرت ماركوز، الثورة والثورة المضادة ، ترجمة: جورج طرابيشي ، دار الآداب ، بيروت ، 1973، ص 25.
- 22- آثار الإبراهيمي، الجزء الأول، ص 250.
- 23- آثار الإبراهيمي، الجزء 1، ص221.
- 24- آثار الإبراهيمي، الجزء 3، ص244.
- 25- عيون البصائر ، 514/2.
- 26- محمد البشير الإبراهيمي، التراث الشعبي والشعر الملحون أو (الزجل) في الجزائر -رسالة-، تحقيق: عثمان سعدي، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2010.
- 27- (رواية الثلاث) محاولة مسرحية شعرية كتبها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي حين أجبر على الإقامة في "أفلو" أثناء الحرب العالمية ، وهي تقع في 887بيتاً، وفي ثلاث جلسات ، في بمثابة فصول مسرحية ، شخصياتها المحورية: عبد الحفيظ الجنان، محمد بن العابد الجلاي ، والسعيد بن حافظ.
- 28- عبد المالك مرتاض، خصائص الخطاب في رواية: الثلاث ، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ص 241.